العولمة والاغتراب الثقافي عند الإنسان المعاصر(مقاربة انتروبولوجية)

أ. يحياوي صفاء
قسم علم النفس
جامعة وهران

– ملخص:

إن العولمة لم تقتصر فقط على البعد المالي والاقتصادي بل تعدت ذلك إلى بعد حيوي ثقافي متمثل في مجموع التقاليد والمعتقدات والقيم كما أن العولمة لا تعترف بالحدود الجغرافية لأي بلد بل جعلت من العالم قرية صغيرة.

إن الثقافة هي مجموع السمات الروحية والفكرية والقومية التي تميز جماعة عن أخرى، وهي شاملة لطرائق الحياة والتفكير والتقاليد والمعتقدات والآداب والقيم والبعد التاريخي باعتباره عامل جوهري في مفهوم الثقافة. وليست هناك ثقافة واحدة وإنما تسود أنواع وأشكال ثقافية منها ما يميل إلى الانغلاق والانعزال ومنها ما يسعى إلى الانفتاح والانتشار وكل مس بواحدة من هذه هو مس بالهوية الثقافية مما يؤدي بها إلى الاغتراب.

تمهيد:

تعتبر قضية الاغتراب من أهم القضايا التي تمس صميم الوجود الإنساني فهي تمس علاقة الفرد بذاته وبمحيطه الاجتماعي وبانتمائه لمجتمعه وثقافته وحضارته.

فالإنسان المعاصر يعيش حالة اغترابية تحت تأثير عدة عوامل من بينها التحولات الهائلة التي حدثت في مختلف مناحي الحياة و تعقيداتها وتأثيرات العولمة والتكنولوجيا الحديثة وما تسببه من اختراق واستلاب ثقافي ونفسي.

وقد وصفت هذه التحولات تحت عناوين متعددة مثل: " ما بعد الحداثة " " ما بعد العولمة " "نهاية الحضارة" و" نهاية المعرفة ".

إن الحنين إلى قيم ومعطيات الماضي والتذمر من الحياة الراهنة ما هو إلا دليل عن اغتراب الإنسان في ظل ما وصفه فرويد(Freud) بـ " قلق الحضارة ".

ومن هذا نطرح الأسئلة التالية :

– من يغترب عن من ؟ واغتراب عن ماذا ؟

– وأين هي الثقافة الإنسانية في خضم عصر مشحون بالصراعات والتوترات والتغيرات؟.

1- مفهوم العولمة:

يرى عالم الإجتماع الانجليزي أنتوني جيدنز(Anthony Giddens) أن العولمة هي عملية تكثيف للعلاقات الاجتماعية عبر العالم على نحو يهيئ لترابط التجمعات المحلية المتباعدة بحيث تتشكل الأحداث المحلية على مقتضى أحداث تقع على بعد أميال عديدة و العكس بالعكس.(1)

ويرى عالم الاقتصاد الماليزي Martin Khor أن العولمة تمثل ما اصطلحنا على تسميته في العالم الثالث لعدة قرون بالاستعمار ووفقا لهذا تعد العولمة صورة من صورالامبريالية الحديثة .(2)

ويرى محمد عابد الجابري إن العولمة التي يجري الحديث عنها الآن هي نظام ذو أبعاد تتجاوز نطاق الاقتصاد لتشمل مجالات السياسة و الفكر ، و هي تشير الى محاولة تعميم نمط حضاري يخص بلدا بعينه (هو الولايات المتحدة)على بلدان العالم أجمع.(3)

ومن هنا يمكننا القول بان العولمة هي عملية مدارة إرادية و غائية تستهدف من خلالها القوى المهيمنة على النسق العالمي.

2- مفهوم الثقافة:

ارتبط مفهوم الثقافة بمفهوم الحضارة،فقد ظهر المصطلحان تقريبا في الفترة نفسها وقد أدى التطور اللغوي والفكري لمصطلح الثقافة إلى غموض أثار جدلا واسعا دفع الباحثين إلى تتبع شجرة تطوره ومحاولة الوقوف على أصوله ودلالته اللغوية والاصطلاحية .

فميز عالم الاجتماع الفرنسي جان مارتينون(Jean pierre Martinon) بين نوعين من التعاريف:

- نوع جزئي محدود يستعمل لوصف التنظيم الرمزي لأي جماعة ،وفعل تناقل ذلك التنظيم،وكذلك مجموع القيم التي تشكل تصور الجماعة لذاتها ولعلاقتها بالجماعات الأخرى وبالعالم الطبيعي.
- نوع واسع الانتشار، و هو لا يتناقض مع الأول و يستعمل فيه مصطلح الثقافة لوصف العادات و المعتقدات،واللغةوالأفكار،والذوقالجمالي،والمعارف التقنية إضافةإلى وصف تنظيم المحيط العام للإنسان.(4)

أما عالم الاجتماع و الانتروبولوجيادنيزكوش (Denys cuche)،فقد تبنى نوعين من التعاريف:

- أ-التعريف العام:الذي يفصل بين الثقافة و الحضارة ،و هو التعريف نفسه الذي قدمه تايلور انهما ذلك المجموع المعقد المتمثل في مختلف المعارف،والمعتقدات،والفنوالقانون،والاخلاق،والأعراف،وكل الاستعدادات التي يكتسبها الإنسان بوصفه عضوا في المجتمع.

- ب–التعريف الخاص:وهو الذي قدمه عالم الانتروبولوجيا الألماني فرانز بواز (Franz boas)ويركز على تفرد الثقافة وخصوصيتها وتعقد نسقها إلى جانب نسبيتها التي تحيل إلى التصورات النسبية كذلك عن الثقافة .

وأي تجاهل لهذه الخصوصية في التعامل معها يعد اعتداء عليها و خرقا لقوانينها و قواعدها.(5) و أشارعالمالانتروبولوجيا مالينوفسكي (Malinovsky)،سمة جوهرية للثقافة كذلك حيث تؤدي كل عادة و كل فكرة و كل معتقد وظيفة حيوية ومهمة محددة،ومن ثم تشكل الكل الثقافي الذي يؤدي بكليته دورا أساسيا بالنسبة للمجتمع.(6)

3– مفهوم الاغتراب:

والاغتراب كما أكده العلماء هو قضية الإنسان في كل زمان ومكان ولكن مظاهره وأشكاله تختلف من عصر لآخر ومن مجتمع لآخر.

ولقد نشطت حقول المعرفة لتحليل وتفسير هذه الظاهرة وذلك في توجهات مختلفة كالفلسفة الوجودية وعلم الاجتماع وعلم النفس والآداب والفنون.ونذكر من بين هؤلاء العلماء:هيجل(Hegel)، فيورباخ(Feuerbach)، شاخت(Schacht)، روسو(Rousseau)، ماركس(Marx)،إرك فروم(Erich Fromm)، فرويد(Freud)، كارين هوربي(Karen Horney)، فرانكل(Frankl)، أركسون(Ericsson) ...

يقول الفيلسوف الالماني *فيورباخ*(Feuerbach) (1872–1804) في كتابه " جوهر المسيحية ": "بدون أدنى شك يفضل مجتمعنا اليوم الصورة على الأشياء والصورة على الأصل ، وتصور الحقيقة على الحقيقة نفسها المظهر على الوجود ... فتصاعد الوهم وأصبح مقدسا ".(7)

واستخدم *هيجل*(Hegel)مصطلح " الاغتراب " في كتابه " فينومينولوجيا الروح " عام 1807. فهو يقول إن الفرد يغترب حين يشعر بالتناقض بينه وبين الدولة وبين ذاته الفردية المنشغلة بأمور الحياة اليومية والذات الكلية المدركة لحقيقتها المتمثلة في حياة المدينة والإرادة العامة ، وهذا التناقض وهو الانفصال بين الذات الفردية وحقيقتها الكلية هو الذي يولد الشعور بالاستلاب.

أما عند ماركس(Marx) فالاستلاب مرتبط بعملية الإنتاج حيث ينفصل العامل عن إنتاجه وعن ملكيته لوسائل الإنتاج وتتحول العلاقات الإنسانية إلى علاقات غير شخصية تخضع لقوانين غير شخصية وهذا هو التشيؤ. (8)

وجوهر الاغتراب عند فروم (Fromm) هو كل ما يضعه الإنسان من أشياء يخضع لها ووضح ذلك في كتابه " المجتمع السوي " سنة 1955. فالثقافة هي ذات المجتمع الذي يمكن أن يغترب أي أن يغترب بمؤسساته ونسقه وأنظمته وأفراده عن الثقافة المجتمعية التي تمثله.وذهب فروم(Fromm) فيكتابه " الهروب من الحرية " في وصف الاغتراب بأن الإنسان صنع لنفسه

شيئا أصبح يسيطر عليه ويتحكم فيه وفي نهاية المطاف هذه الأشياء سيطرت على العالم بأكمله مثل النقود (المال) التنظيمات والآليات التي لم يدرك إدراكا كاملا لآثارها.(9)

أما فرويد(Freud)فإنه يرى تعارضا بين الإنسان والحضارة . هذه الأخيرة ،في تقديره ، تأسست بفعل جهود الإنسان دفاعا عن ذاته ضد عدوان الطبيعة ومخاطرها. ولكنها كما يوضح جاءت على نحو يتعارض مع تحقيق أهداف الفرد ورغباته حيث تقوم على كبت الغرائز عندما يعمل بمبدأ الواقع وهذا يولد لديه الإحساس بعدم الارتياح وعدم الرضا والاغتراب عن الذات.(10)

وهذا ما وصفه الوجوديون على أنه وجود داخل العالم أي أن الفرد مجرد شيء داخل العالم (ظاهرة التشيؤ) أما الوجود الإيجابي فهو وجود في العالم وهذا ما يضفي على الفرد صفة المشاركة الفاعلة والإيجابية في العالم.(11)

4-جوهرالعلاقة بين الفرد و الثقافة و المجتمع:

أن الإنسان كينونة جوهرها الروح والعقل و الجسد وكل ما يمس هذه الأبعاد الأساسية في جوهر الشخصية سيدفع بها إلى حالة اغتراب.(12)

فكما يقول الفيلسوف و عالم الاجتماع الفرنسي *هنري ليفيفر* (Henri Lefebvre)الانسان يؤثر في الطبيعة ويتأثر بها وهو عندما يغيرها يتغير معها في الآن الواحد، وبالتالي فإن العلاقة النشطة بين الإنسان والطبيعة لا تنطوي على خفايا وأسرار لأن هذه العلاقة تتم عبر العمل بصورة مركزية، فالإنسان يستطيع عبر العمل أن يتجاوز حدود الحياة العفوية المباشرة في الطبيعة، فهو ينتج ويبدع أشياء متعددة، وهذه الأشياء تلبي حاجاته، ولكنها في الوقت نفسه تولد حاجات جديدة دون انقطاع، وهي في الوقت ذاته تعمل على تعديل الحاجات القائمة، وفي مجرى تحقيق الإنسان لذاته في عالم الأشياء، فإن هذا الحضور الذاتي لا يعني ضياعا للإنسان واستلابا له، بل يرمز إلى نمائه وازدهاره "(13) .

والثقافة كما يعرفها كانط(Kant) هي مجموعة من الغايات الكبرى التي يمكن للإنسان تحقيقها بصورة حرة وتلقائية، فهي إذن أرقى ما يمكن أن يصل إليه. والحرية الإنسانية والعقلنة والسمو الأخلاقي من أبرز مظاهرها.(14)

و في هذا التصور ،الثقافة هي تطور و ارتقاء تطور و ارتقاء الإنسان المرتبط جوهريا بتقدم الجانب العقلي والوجداني في مجال تكيفه وسيطرته على الكون، وعلى هذا النحو تكون الثقافة بمعناها الإنساني الغائي جهد إنساني لعقلنة الكون وأنسنته. والأنسنة تعني هنا قدرة الإنسان على استحضار جانبه الإنساني من عقل وعاطفة ووجدان وحس في مسار تفاعله وتكيفه في الوجود.

وفي هذا يقول الأديب والفيلسوف الهندي طاغور(Tagore) "إن الحضارة المادية ستخسر كل شيء إذا فقدت روحها، وأن البشرية ستصبح مهددة بالفناء في ظل جسد بلا روح وعندما تصبح الحضارة بلا قلب فإنها ستفقد أهم مقومات الحياة.(15)

الثقافة هي الكل الذي يجمع الأفراد معا فيشترك أعضاء المجتمع في عناصرها التي تتيح لهم مجالا للتعاون.

والمجتمع الكيان هو مجموعة الأنساق والأنظمة الاجتماعية والمؤسسات المدنية والمكونات الاقتصادية والسياسية والثقافة المجتمعية أين يندرج فيه التراث،القيم والمعايير والتقاليد والمنتج الإنساني الذي هو في صيرورة تحول مستمر.

وتغير الثقافة يقتضي بالضرورة تغير المجتمع ، فالإيديولوجيات بجميع أشكالها لديها دائما محرك تاريخي تلاعب به الثقافة المجتمعية لتمرير أهدافها وخططها بهدف نهائي يخلق غربة بين الثقافة (الكل) وبين المجتمع (الكيان) والفرد (العنصر المكون) حيث تسهل السيطرة والتحريك لعناصر المجتمعات المستهدفة من قيم ومعايير. وهذا ما أسماه مالك بن نبي " بالقابلية للاستعمار (16)."

5- أبعاد و مظاهر الاغتراب:والاغتراب كعملية وكنتيجة يمس العلاقة بين الذات و الآخر فيحس الفرد بأن ذاته ليست حقيقية أو إنه بعيد عن الثقافة والمجتمع والحياة بصفة عامة فيشعر باليأس والقنوط واللاأمن وما يصح على الفرد مبدئيا يصح على المجتمع الثقافي. (17)

من أهم أبعاد الاغتراب:

1- الشعور بالعجز، 2- الشعور باللامعنى، 3- اللامعيارية واللاهدف،4- الغربة أو العزلة الاجتماعية، 5- اللاانتماء .

وإن اغتراب الثقافة عن المجتمع هو تعبير عن انفصال وعدم تكيف لتحقيق درجات التوافق بين الإنسان وبيئته مما يجعله غير قادر على الإجابة عن تساؤلات كدوره في الحياة وعن مدى فاعليته وإنتاجيته وعن ما يضيفه لمجتمعه.وأحد مظاهر هذا الاغتراب هو الازدواجية والتناقض في السلوكات الفردية فتجد الفرد يقول شيئا ويفعل نقيضه.(18)

والإنسان العربي على سبيل المثال يعيش رهانات وتحديات كبرى على جميع الأصعدة اللغوية، الدينية، التاريخية، الفكرية ...فهنالك من تقوقع في نسق مغلق ممجدا فيه لماضيه وتراثه ، وهنالك من انسلخ من جلدته تماما ، وهنالك من يسعى إلى التوفيق بين هذا و ذاك ليحقق التوازن ، و لكن كم هي صعبة هذه المعادلة والتي في جوهرها-بالرغم من اختلافاتها الظاهرية- ليست إلا تعبيرا حقيقيا عن الاغتراب(19) .

إن عدم فهم الإنسان للواقع وعدم معرفته للآليات التي تسيره يشعره بالعجز أمام قوى المؤسسات والأنظمة مما يؤدي به إلى البحث عن مرجعيات أخرى معتقدا بأنها أجدى وأنفع للتخفيف من قلقه وتوتره.

فالاغتراب هو الوضعية التي ينال فيها القهر والتسلط والعبودية من جوهر الإنسان، وهو الحالة التي تتعرض فيها إرادة الإنسان أو عقله أو نفسه للاغتصاب والاعتداء والتشويه. وبالتالي فإن أدوات الاغتراب هي مختلف أدوات القهر، وكل ما من شأنه أن يعيق نمو الشخصية الإنسانية وازدهارها وتفتحها.(20)

وتتبدى مظاهر الاغتراب في أشكال أحاسيس مفرطة بالدونية، واللامبالاة، والقهر، والضعف، والقصور والسلبية، والانهزامية.ويقول الضابط الانجليزي جون هونت *(John Hunt)* في وصفه للاغتراب : إن قلة من العبيد تفكر في الحرية أما جمهرتهم فكل يتباهى بأن سيده هو الأفضل والأقوى والأغنى ".(21)

6- العولمة أهدافها و نتائجها :

يتمثل جوهر العولمة ثقافيا في عملية اغتصاب ثقافي يستهدف إنسانية الإنسان، وتتمثل هذه الثقافة في أنساق متنوعة من الفعاليات المنظمة الساعية إلى تشكيل الإنسان على منوال القيم والمعايير التي تحكم اتجاهات الحياة ومطالب السوق الرأسمالية الجديدة. إنها تهدف إلى بناء الروح الاستهلاكية عند الإنسان وتنميطه في طرازات ذوقية قيمية تحددها مطالب السوق الرأسمالية الجديدة.(22)

تنحصر أهداف العولمة في الهيمنة والاختراق الثقافي وطمس الهويات المجتمعية عن طريق القضاء على الخصوصيات التراثية وتوسيع الحدود الثقافية لمحو معالمها فيكون في نهاية المطاف " البقاء للأقوى " و" للأكثر إغراءا وإثارة وتميزا " وهذا في ميادين شتى: في العلوم والتكنولوجيا،السينما،الرياضة، الموسيقى،الأكل،اللباس...فيكون الاغتراب وفق آليات هي :

- الانبهار : ينبهر بثقافة الآخر.
- الانصهار والذوبان : يذوب فيها.
- الاندثار : تلاشي واضمحلال الثقافة المحلية والمجتمعية.(23)

إن مختلف الوسائل الإعلامية تعتمد أساسا على الصورة إنتاجا واستهلاكا على نحو بالغ التنوع والامتداد وهذا يسمح للفرد ودون حدود باللهو والتسلية والحلم والتخيل بديلا عن الحياة الحقيقية للهروب من الواقع، فيلاحظ قلة الاهتمام بالأعمال الفكرية الكبرى وما تتضمنه من فلسفات عميقة للوجود البشري ، فالعولمة هي في حد ذاتها اعتداء على العقل.(24)

تميزالفيلسوفة الالمانية تميزحنا أرنت (Arendt Hannah)(1906-1975) في كتابها"شرط الإنسان الحداثي"

La condition de l'homme moderne بين عالمين حيث فرقت ما بين الأعمال الفنية التي تنتسب إلى عالم غير زمني للثقافة وبين الاستهلاك في عالم ما بعد الحداثة. فهذا يمثل نهاية الثقافة السامية وهيمنة الاستهلاك بوصفه ثقافة حيث يتم قياسها بمعيار الاستهلاك.وفي عصرنا هذا أصبحت القيمة العليا هي القيمة الاقتصادية بامتياز، فقيمة الأشياء، وقيمة الأشخاص تحسب اليوم بمعايير الاستهلاك وبالقدرة على الاستهلاك. وبالتالي فإن لذة الاستهلاك هي معيار سعادتنا. إن هاجسنا اليوم هو اللهو واللذة والمتعة وقد أصبحت هذه معايير نموذجية لنمط الحياة الثقافية المعاصرة.(25)

وعن هذا يتساءل عبد الخالق عبد الله حول الهوية التي تعد بها العولمة معلنا بأنها هوية استهلاكية مسطحة لا عمق فيها ولا معنى. إنها ثقافة السلعة والتسويق والربح، فهي توحد شباب العالم على قيم استهلاكية واحدة وأنماط ذوقية واحدة في اللبس، المأكل، السينما، الرياضة، الموسيقى.يجب علينا أن نعلن أننا إزاء مفهومين للثقافة ومنهجين للحياة، فهناك ثقافة الأنسنة ، وهناك ثقافة العولمة أي الاستهلاك والتسويق وهي ثقافة اغترابية لأنه يتم فيها تغييب الجوانب الوجدانيةالإنسانية في الإنسان واستحضار جانب النزوة، حيث تجعل من الإنسان نفسه مادة وشيئا مُستهلكاً ومستَهلكاً في دورة النزوة للتسويق الرأسمالي المدمر. وبعبارة أخرى نحن أمام مفهومين للثقافة أحدهما يؤنسن والثاني يشيئ، أي يجعل الإنسان مجرد شيء يخضع لقوانين العرض والطلب، أحدهما يجعل من الإنسان شأنا غائيا بينما يدفعه الآخر إلى دائرة التشيؤ والاستهلاك. أحدهما يخاطب العقل والروح والقلب والضمير والوجدان والآخر يخاطب النزوة واللذة والسرعة .(26)

ومما لا شك فيه أن هذين النمطين من الثقافة يعيشان جنبا إلى جنب مع فارق يتمثل في زحف كبير لثقافة التشيؤ وانحسار أكبر في ثقافة الأنسنة والعقلنة. ففي عصر العولمة يجري النظر إلى أي شيء على أنه ثقافة، مثل: ثقافة البوب، و الهيب هوب والروك، وأشرطة الفيديو، وبرامج التلفزيون، وعمليات التجميل، وتناول المخدرات، والعنف و الحرية الجنسية بكل أنواعها . كل هذا يُثمن ويقدر على أنه ثقافة، وتلك هي العناوين الكبرى لمفهوم الثقافة في دلالته المعاصرة السائدة. (27).

وفي دائرة هذا الجنون الاستهلاكي والنزعة الشبقية يفقد كل نشاط يعتمد على التأمل والتعقل والنظر والصبر قيمته ودلالته ومعناه. أي أن كل النشاطات الإنسانية التي لا ترتبط بالاستهلاك واللذة تصبح مدعاة للسخرية والازدراء والاحتقار.(28)

يقوم الإعلان بوصفه " صناعة الموافقة وبيع الأحلام " بتعطيل الميل العقلاني والحس النقدي، فتتخلق هويات جديدة مقطوعة الصلة بواقعها وتاريخها ومرجعياتها الثقافية الوطنية، وتتمركز حول "النحن الاستهلاكية " التي تبتكر نجومها وقيمها المتصلة بالربح والنجاح باعتبارهما البوابتين الرمزيتين لامتلاك روح العصر والانتماء إليه".(29)

فطفل اليوم يشاهد عشرات المحطات التلفزيونية، يأكل سريعا، ويعيش و يتفاعل سريعا، ويتحرك وفقا لمبدأ المتعة واللذة، هذا الطفل سيكون من الصعب عليه أن يركّز انتباهه لأنه قد اعتاد على نوع من الحياة التي تعتمد الإثارة السمعية البصرية المستمرة كماهو الحال في لعبة فيديو، فالتعليم بالنسبة إليه لا يختلف عن عملية الاستهلاك ، والمدرسة ما هي في نظره سوى آلة توزع المعرفة كما توزع الآلة علب الشكولاطة والكوكاكولا. والفرق الوحيد بين الكوكا كولا، والمعرفة أن الأولى تتميز بلذتها وقدرتها على الإمتاع والإنعاش أما الثانية أي المعرفة فإنها تمارس قهرا ومعاناة وإكراها، إن البحث عن المتعة الفورية التي ترتبط اليوم ارتباطا كبيرا بالجنس وما يجره من متعة زائفة أصبح من الأمورالمألوفة والعادية.(30) هذه السمات الثقافية أصبحت صميمية في حياة الشباب والمراهقين. وقد تعززت هذه المظاهر بحضور كبير لمفهوم الأنوية المفرطة عند هؤلاء الشباب والمراهقين في رؤيتهم للكون والوجود.(31)

يُحاصر ذكاء الفرد في مرحلة ما بعد الحداثة ويختزل في معرفة منقطعة عن الحياة فاقدة للدلالة الثقافية، حيث يستطيل الخيال ويتمدد على حساب الحقيقة. لقد أصبح مجتمع ما بعد الحداثة – وفقا لتعبير الكاتب الفرنسي غي ديبورد(Guy Débord) – مجتمعا استعراضيا بامتياز(La société du spéctacle) حيث تتحول الحياة إلى نوع من التفاعل الاستعراضي للصورة واللون والحركة البصرية، ويتحول الأثر على كل ما هو مباشر وحيوي في الحياة إلى خيالي وتصوري وافتراضي.(32)

وهذه الصورة تتوافق مع وصف العالم الأنتروبولوجي*مارك أوجيه(MarkOjeh)* في كتابه "حرب السلام" لغزو الصور الذي يداهم الكون حيث يقول " إنه غزو يشنه نمط جديد من الخيال الذي يعصف بالحياة الاجتماعية ويصيبها بالعدوى ويخترقها إلى حد يجعلنا نشك فيها، في واقعها وفي معناها وفي المقولات الخاصة بالذات والآخر التي تتولى تكوينها وتعريفها ".(33)

لقد أدت هيمنة المعايير المادية في الحياة الاجتماعية إلى حالة من تراجع معايير الحياة الأخلاقية، وإلى تحويل الإنسان إلى كائن مأخوذ بالربح والتملك والسيطرة والهيمنة، وبالتالي فإن الانقلاب الكبير الذي يحدثه الاقتصاد يصل مداه عندما تتحول الثقافة إلى ثقافة السوق أو عندما تتحول الثقافة نفسها إلى منتج مميز للتسويق الاستعراضي الذي يصادر العقل، الوعي، الحرية والكرامة.(34)

هذه هي الحالة المعقدة والمحيرة لعصرنا اليوم، حيث يتم تعطيل الدلالات الثقافية و يتم فيه تغييب الرؤى الشمولية والكلية للحياة، عصر التجزؤ والانشطار في مختلف المجالات، ولاسيما في المجالات المعرفية، إنه عصر الفصل بين الحقول المعرفية وبين مستويات التفكير الإنساني، بل هو عصر الفوضى الفكرية حيث لا توجد أية مصادر حقيقية للفهم العميق للإنسان المعاصر.وبالتالي فإن عدم قدرة الثقافة على تحقيق نفسها وعدم قدرتها على توليد الطاقة الحيوية ،ينقلب على الثقافة ذاتها ويؤدي إلى ولادة صيغ التدمير الذاتي في داخل الثقافة عينها.(35)

وفي ثقافتنا التقليدية ما زالت قضايانا الكبرى تتمثل في سفاسف الأمور وصغائرها وفي هذا دليل كبير على حالة اغتراب ثقافية.

فأين نحن من الندوات العلمية التي نجدها في الغرب،حول الثورات الرقمية، والجينات، والشيفرات الوراثية، وغزو الفضاء وتدجين الإنسان، واختراق الزمن، وقضايا النسبية، وابتلاع الضوء، والدورات الفلكية، وامتداد الكون؛ وقابلية الكون للفناء!!

وفي هذا السياق يرى المنظر السياسي الأمريكي *بنجامين باربر(BenjamainBerber)* في كتابه "الجهاد ضد السوق الكونية" بأن الآثار التفكيكية للسوق الكونية ستؤدي إلى مضاعفات وردود فعل عنيفة في داخل كل ثقافة، ومن ثم يؤكد أن قيم السوق الكونية العالمية سوف تنتصر في نهاية المطاف على الذين يتصدون لمقاومتها. حيث يقول: " إنني أتنبأ بأن المقاومة ستهزم في النهاية (إن لم يكن في أي وقت قريب) أمام السوق الكونية. وهذا التنبؤ يستند كلية تقريبا إلى القدرة الهائلة للثقافة الكونية على التغلب على كل ما يجابهها من ضيق الأفق الفكري. وهذا حتى الآن ما نراه أمام العين، في ظل آليات الهيمنة العالمية تحولت الثقافة

الاستهلاكية إلى آلية فاعلة لوضع الإنسان العربي في دائرة الاغتراب، ومن ثم تعليب قناعاته الوطنية والأيديولوجية والأخلاقية والدينية.(36)

وهكذا لعبت الثقافة العالمية الجديدة دورا كبيرا في تدمير البنى التقليدية للمجتمعات العربية وحولت الإنسان إلى قيمة استهلاكية.فالثقافة الكونية هي في زحفها هذا استطاعت " أن تربك المنظومة التقليدية وتدخل الفزع حيث أفقدت المواطن العربي الثوابت الثقافية التي يبني بواسطتها هويته، وذلك لأن الهوية تحتاج إلى مرجعيات ثقافية وقيمية واضحة وثابتة .(37)

– خاتمة:

إن خلق ارتباط بين أفراد المجتمع وثقافتهم والتخفيف من الشعور بالاغتراب وتعزيز الشعور بالانتماء لا يعني بالضرورة نظرة سلبية أو مقاطعة تامة لكل ما هو وافد أو مستحدث من القرب، ولكن توسيع دائرة الوعي بإنسانية الحضارة في شتى الميادين، من شأنه أن يرمم هذا الشرخ أو التصدع الحاصل. وذلك عن طريق التفكير المرن والواقعي بدل الجمود والتحجر والتعصب.

ومما لا شك فيه أن الصراع بين النقيضين سيظل قائما بين الخير والشر وبين الظلم والعدل وبين التعمير والتدمير...

لكن الأفراد الفاعلين في مختلف الأنظمةو المجتمعات سيبدعون أساليب نضالية جديدة لخلق توازنات من شانها الحفاظ على الهوية الثقافية للأفراد و المجتمعات .

– الهوامش:

1– ممدوح محمود و محمود منصور ،" العولمة"، دار الجامعة الجديدة، الزقازيق، دط،2003 ص 12

2–المرجع نفسه ،ص13.

3–المرجع نفسه ص17.

4– الطاهر لبيب ،"سوسيولوجية الثقافة" ،دار الحوار اللاذقية، دط، 1987 ، ص 14.

5–المرجع نفسه، ص16.

6–المرجع نفسه ،ص18.

7– مصطفى حجازي،" حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والعودة للأصولية" ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1998، ص 157.

8– محمد عباس يوسف، " الاغتراب والإبداع الفني "، دار غريب ، 2001 ، ص 8.

9– حماد حسن محمد حسن،" الاغتراب عند إرك فروم"، المؤسسة الجامعية للدراسات ، ط 1 1995 ص 7.

10– محمد عباس يوسف ،المرجع السابق،ص9.

11–المرجع نفسه ،ص10.

12– فاخر عاقل" معجم العلوم النفسية " ، دار الرائد لبنان ، 1998،ص 38 .

., Paris, Bordas, 1948, P 119 "peur connaitre la pensée dekart Marx" – Henri Lefebvre13

14– المختار بن عبد اللاوي" الثقافة العربية ومعطيات الواقع الراهن والآفاق المنظورة"، مجلة الوحدة، عدد غير مذكور1998،ص 45.

15– علي واضفة علم الاجتماع التربوي و قضايا الحياة التربوية المعاصرة ،دار الفلاح ، الكويت دط،1999،ص65.

16– محمد بو بكري،" التربية والحرية، من أجل رؤية فلسفية، الفعل البداغوجي" ،دارإفريقيا الشرق، الدار البيضاء،المغرب، 1997، ص38.

17–مجدي عزيز إبراهيم،" المنهج التربوي العالمي، أسس تصميم منهج تربوي في ضوء التنوع الثقافي " ، الدار الأنجلو مصرية القاهرة 2001، ص 232.

18– علي وطفة،" المظاهر الاجتماعية للاغتراب الإنساني" ، مجلة المعلومات مركز المعلومات القومي، العدد 43، الكويت، 1996،ص50.

19– المرجع نفسه ،ص53.

20– المرجع نفسه ،ص55.

21– المختار بن عبداللاوي،المرجع السابق، ص 46.

22- عبد القادر القادري، " حقوق الإنسان: الخطاب والممارسة" ، الوحدة، ضمن المجلس القومي للثقافة العربية: حقوق الإنسان في الوطن العربي العددان 63،64، ديسمبر/يناير، 1990، ص28.

23- المرجع نفسه ،ص30.

24- المرجع نفسه ،ص32.

25- محمد جواد رضا،" أزمات الحقيقة والحرية والضرورة" ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، سلسلة الدراسات العلمية والموسمية المتخصصة، العدد 22، يناير، الكويت 1991، ص27.

26- عبد الخالق عبد الله ،" العولمة جذورها و فروعها و كيفية التعامل معها" ،عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الاداب،الكويت ،1999،ص 79.

27- المرجع نفسه ،ص80.

28- محمد جمال باروت، " الدولة والنهضة والحداثة، مراجعات نقدية"، دار الحوار،اللاذقية، ط1، 2000، ص 129.

29- المرجع نفسه ،ص131.

30- عبد الله الخياري، " التعليم وتحديات العولمة " ، مجلة فكر ونقد، عدد 12، السنة الثانية، أكتوبر، 1998، دب،ص 45.

31- المرجع نفسه ،ص46.

32- المرجع نفسه ،ص48.

33- مصطفى حجازي،"حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والعودة للأصولية " ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1998، ص 158.

34- كريم أبو حلاوة،" الآثار الثقافية للعولمة حظوظ الخصوصيات الثقافية في بناء عولمة بديلة"، عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد 29، يناير/ مارس 2001، 2002)،ص 184.

35- المرجع نفسه ،ص186.

36- المرجع نفسه ،ص190.

37- المرجع نفسه ،ص192.

المراجع

- الطاهر لبيب ،"سوسيولوجية الثقافة" ،دار الحوار اللاذقية، دط، 1987 .

- المختار بن عبد اللاوي" الثقافة العربية ومعطيات الواقع الراهن والآفاق المنظورة"، مجلة الوحدة، عدد غير مذكور1998.

- حماد حسن محمد حسن،" الاغتراب عند إرك فروم"، المؤسسة الجامعية للدراسات ، ط 1 1995 .

– عبد الخالق عبد الله ،" العولمة جذورها و فروعها و كيفية التعامل معها" ،عالم الفكر ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الاداب،الكويت ،1999،

– عبد القادر القادري، " حقوق الإنسان: الخطاب والممارسة" ، الوحدة، ضمن المجلس القومي للثقافة العربية: حقوق الإنسان في الوطن العربي العددان 63،64، ديسمبر/يناير، 1990.

– عبد الله الخياري، " التعليم وتحديات العولمة " ، مجلة فكر ونقد، عدد 12، السنة الثانية، أكتوبر، 1998، دب.

– علي واضفة علم الاجتماع التربوي و قضايا الحياة التربوية المعاصرة ،دار الفلاح ، الكويت دط،1999.

– محمد عباس يوسف، " الاغتراب والإبداع الفني "، دار غريب ، 2001.

– ممدوح محمود و محمود منصور ،" العولمة"، دار الجامعة الجديدة، الزقازيق، دط،2003.

– علي وطفة،" المظاهر الاجتماعية للاغتراب الإنساني" ، مجلة المعلومات مركز المعلومات القومي، العدد 43، الكويت، 1996.

– فاخر عاقل" معجم العلوم النفسية " ، دار الرائد لبنان ، 1998.

– كريم أبو حلاوة،" الآثار الثقافية للعولمة حظوظ الخصوصيات الثقافية في بناء عولمة بديلة"، عالم الفكر، العدد الثالث، المجلد 29، يناير/ مارس 2001، 2002)

–مجدي عزيز إبراهيم،" المنهج التربوي العالمي، أسس تصميم منهج تربوي في ضوء التنوع الثقافي " ، – محمد بو بكري،" التربية والحرية، من أجل رؤية فلسفية، الفعل البداغوجي" ،دارإفريقيا الشرق، الدار البيضاء،المغرب، 1997،الدار الأنجلو مصرية القاهرة 2001.

– محمد جمال باروت، " الدولة والنهضة والحداثة، مراجعات نقدية"، دار الحوار،اللاذقية، ط1، 2000.

– محمد جواد رضا،" أزمات الحقيقة والحرية والضرورة" ، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، سلسلة الدراسات العلمية والموسمية المتخصصة، العدد 22، يناير، الكويت 1991.

– مصطفى حجازي،" حصار الثقافة بين القنوات الفضائية والعودة للأصولية" ، المركز الثقافي العربي، بيروت 1998.

–Henri Lefebvre "peur connaitre la pensée dekart Marx" Paris, Bordas, 1948